(الخطيئة)

(١)

جلس سالم أمام شاشة الكمبيوتر. لم يفعل أي شئ، فقط أشعل سيجارة، ونظر إلى الشاشة، رجفة يده كفيلة بأن تخبرك بكل ما يدور في رأسه من تردد ممزوج بالخوف. بندول في رأسه يتأرجح بين عذاب الشك ولعنة المعرفة.

أطفأ السيجارة، واتخذ قراره بأن يقطع الشك باليقين، وفتح الموقع المشهور. لصفحته الرئيسية رهبة. أعلاها عين تنظر إليك. نظرة توحي إليك بأن صاحبها لا يخطئ، واسم الموقع الذي يؤكد الفكرة : "العين الأعلى" وأسفل العنوان شطر من قصيدة لنجيب سرور " واتبعوني، أنا أهوى العري والسرمحة " .. وأسفلها فراغات لملئ البيانات، وأسفل الفراغات بخط صغير: " من كان منكم بلا خطيئة، هو طفل لم يكمل عامه الأول."

نظر إلى الجملة وتمنى في سره أن يكون كاتبها مجرد مخبول، وبدأ بملئ بيانات زوجته في الفراغات، وضغط على زر الدخول.

(٢)

قبل ثلاثة أيام *

صاعدة على الدرج، ترتدي ملابس حجمها ضعف حجم جسدها النحيف، بمزيج من الأسود والبني، وقطرات العرق على وجهها بسبب الحجاب الذي ضاعف من حرارته. تسرع خطواتها في الصعود داعية ألا تقابل أحدًا من السكان. سمعت خطوات شخص ينزل فشعرت بضيق تعتقد أنها لن تشعر به إن علمت أن تلك خطوات ملاك الموت.

بدأ الحاج عبد الستار -الحاج عبدالستار لم يرَ الكعبة إلا في بعض الصور رغم حالته المادية الميسورة ولكنه الحاج عبدالستار- بمجرد أن نظر إلى وجهها على الدرج في ممارسة هوايته المفضلة بأن يتمتم :

- أستغفر الله العظيم وأعوذ بالله من غضب الله!

نظرت هي إلى الأرض ومارست أيضًا هوايتها المفضلة بأن تقاوم رغبتها في البكاء.

شهران وذلك كل ما تفعله دائمًا، تقاوم رغبتها في البكاء. تحاول الاستمرار على أمل أن ينسى الناس، ولكنهم لا ينسون. وكأنها

قضمت من شجرة الخلد. وكأنه ذنب لا يغتفر. وكأنهم ملائكة. شهران بعد أن نشر حبيبها السابق فيديو لهما معًا. منذ أن انتشر الفيديو وهي تتعرض لكل اضطهاد ممكن، بدءًا من تقليد أصوات تأوهاتها بمجرد أن تدخل إلى منطقتها الشعبية، مرورا بالاستغفارات بعد النظر إلى وجهها وكأن فرجها انتقل لأنفها، وصولًا إلى التحرش بها تمسكًا بمبدأ (أنا أولى من الغريب.)

وابتهال وحيدة والديها، اللذان قاطعاها منذ أن حدثت تلك الكارثة، ولكن سمح لها الأب بالبقاء في المنزل، سجنها الانفرادي، حيث إن تعاملهما معها انقطع كأنهما لا يرونها. تضع الأم طعام ابتهال على السفرة فتجلس أمامه وحيدة. تنظر للطعام مقاومة رغبتها في البكاء. تلعن ما يرونه خطيئتها الكبرى، وتلعن رغبتها. تتمنى الموت الهادئ. أو شجاعة الانتحار.

---

(٣)

قبل ثلاثة أيام

مسح سالم قطرات العرق على جبينه بظهر يده، فشعر بالضيق لأنه وجد أن ظهر يده أيضًا مبتل من الأساس. والحق أن هذا هو ما يفعله طوال حياته. يمسح عرقه بيده المبتلة.

ابتسم عندما خطرت له فكرة أنه إذا تحولت سيرته الذاتية إلى كتاب ستكون تلك جملته الافتتاحية. الوصف الأدق لحياته، حتى أنه اعتاد أن يفترض ليسدد ديونه.

دخل من بوابة المدرسة المحاطة بأسوار كأي سجن يحترم نفسه. المبنيان العشوائيان في المنتصف

يحيط بهما مساحات ترابية يفترض أنها لممارسة الرياضة. شعر بسعادة طفولية لكونه غير مقيد بين تلك الأسوار. بمجرد أن دخل المبنى وهرب من قبضة يد الأشعة الشمسية تذكر سبب وجوده هنا، استدعاء ولي الأمر. بالأمس جاءه استدعاء ولي أمر، وبعد ساعتين مع الابن لم يعرف سبب الاستدعاء، ولكنهم أكدوا على ضرورة وجوده هنا بسبب فعل غير اخلاقي ارتكبه الابن، ظل ساعة قبل النوم يخمن ماذا فعل الابن، بالطبع لم يسرق فمهما فعل تلك ليس من طباعه، وأيضًا لم ...

- عايز إيه يا أستاذ؟

قاطعت الموظفة أصواته الداخلية وكأنها بائع في متجر ملابس. والحق أن الموقف لا يختلف كثيرًا فهو لا يقف في مكتب، ولكنه أجابها :

- المدير، عايز مكتب مدير المدرسة.

- آخر أوضة على اليمين.

والتي كانت الغرفة الثالثة، يسبقها غرفة المعلمين. نظر من الخارج فلم تكن تختلف عن القهوة البلدي إلا أن القهوة ليست مليئة برفوف تغطيها طبقات من التراب. والغرفة الثانية مغلقة وكتب عليها من الخارج "حجرة الموسيقى"، دخل الى مكتب المدير والذي بالطبع لم يكن قهوة بلدي، بل كان "كافيتريا"!

على المكتب يجلس المدير، بصلعة وشارب ووجه صارم يليق برئيس مباحث، وأربعة أشخاص آخرين في أماكن مختلفة في الغرفة واثق بأن لهم مكاتبًا ومهامًا تركوها ليجلسوا هنا بصفتهم (رجالة المعلم)!

- السلام عليكم

رد المدير فقط:

- وعليكم السلام

- حضرتك بعتلي استدعاء ولي أمر

- والله مانا فاكر، اتفضل اقعد، ابنك اسمه إيه؟

- احمد سالم فاروق

فتدخل أحد (رجالة المعلم)

- آه ده بتاع الصور العريانة

شعر سالم بأن السقف يقترب من رأسه، وقبل أن ينظر للمتحدث تحدث المدير:

- االاه، لا بص أستاذ عادل يقولك بقى!

وأشار الى المتحدث الذي أكمل حديثه

- ماهو أنا اللي بدي تربية فنية في الفصل اللي فيه ابنك، إمبارح قولتلهم يرسموا رسمة عن الوحدة الوطنية وكله يوريني الرسمة، جيت عند ابنك بقى وانا بشوف الرسمة وبقوله حلوة، بقلب الصفحة لقيت رسمة تانية .. أستاذ جمال يوريهالك

فتح المدير درج مكتبه، وأخرج منه الورقة وأعطاها لسالم الذي وجه رأسه إلى الأرض عندما شعر أن سقف الغرفة اقترب أكثر

ولامس صلعته. نظر سالم إلى الرسمة، يتوسط الرسمة امرأة عارية تمامًا تقف على رمال شاطئ لا يوجد به إلا هي، وخطين من أشعة الشمس يمر أحدهما على رقبتها والأخر تحت نهديها وكأنهم يحيطان بنهديها.

- أحمد اللي رسم دي؟

سأل سالم، فأجابه الأستاذ عادل :

- أيوة، هو رسمه حلو بصراحة بس عايز شدّة، عيب وحرام يستغل موهبته في الكلام ده!

وأضاف المدير:

- قسمًا بالله من ساعة ما شوفت الصورة وأنا كنت ناوي أديله رفد ٣ أيام، بس لقيت حضرتك راجل محترم، انت بس شد عليه شوية زي ما أستاذ عادل بيقولك.

- شكرًا يا أستاذ .

- ربنا يهديه ويعمل اللي فيه الخير.

---

(٤)

"لو أن للوقت طاقة مثل طاقتي، تنتهي بعد فترة، لو أن الوقت يخضع، يستسلم، لو أنه كعجين صنعته الجدة، تشكله حسبما تريد، لو أنني أتحكم فيه، لقدمته سنة بعد كل كارثة حتى يكون تأثيرها اختفى، أو رجعت به للبداية وصححت كل شئ، أو لكنت أوقفته لبعض الوقت لأنعم ببعض الهدوء، متخلصًا من صوت دقات الساعة المستمر داخل رأسي."

هكذا كان يفكر أحمد سالم، الطفل الذي يشعر أنه ارتكب الخطيئة الكبرى، وليست كأي خطيئة كبرى؛ لقد تخطى كل قوانين الأسرة وقام برسم جسد عاري. هو يعلم أن أباه يعرف ما فعل، ويجلس منتظرًا عقابه. لكنه لم يكن يخشى العقاب بقدر ما يشعر بالخجل فالجنس في الأسرة يشبه الفيل في الغرفة، الجميع يعلم عنه، الجميع يراه، لا أحد يستطع اخراجه من الغرفة، ولهذا يتظاهر الجميع بأنه غير موجود، ولهذا تنفجر أجهزة الإنذار داخل عقول الجميع عند مشاهدة قُبلة في فيلم تشاهده الأسرة معًا، والآن بعدما رسم الابن ذلك الجسد العاري، فكأنه صعد على الفيل وأشار لجميع من في الغرفة إليه، ليتظاهر الجميع بأنهم تفاجؤوا بوجوده بينهم!

ولأن سالم كان يشعر بانهيار ما في داخله، وكأنه زرع في الأرض بذرة فاسدة، حاول أن يحافظ على الوضع مستقرًا. أشاح بوجهه كأنه لم يرَ الفيل، ولم يفاتح الابن في الموضوع، ولم يجرؤ الابن على السؤال. وبهذا استمر الحال على ما هو عليه. ولكن الجديد أن ذلك الحدث جلب للغرفة فيلًا جديدًا هو موهبة الابن الرسام، الذي تظاهر الجميع بعدم وجودها.

---

(٥)

في الليلة السابقة لذلك الحدث بدأ ينتشر الإعلان على مواقع التواصل الاجتماعي عن موقع يسمى العين الأعلى. عين تعلم كل شئ عن الجميع. فقط بإدخال بعض البيانات العادية لأي شخص يمكنك أن ترى خطيئته الكبرى، أو ربما خطاياه. بالطبع تم التعامل مع الأمر على أنه مزحة، ولكن قبل أن تشرق الشمس كان العين الأعلى هو الحدث الأهم في العالم. ولم يتم تسجيل حالة واحدة ينتهي بحثها بالعثور على لا شئ. دائما هناك شئ. رجل الدين الشهير بفيديو جنسي مع قاصر. الفنانة القديرة التي اعتزلت التمثيل لتدير منازل بيع الهوى. تسجيل لمسؤول كبير يأمر باغتيال مسؤول كبير آخر. ناهيك عن

الفيديوهات الجنسية المنحرفة لأكثر الفنانين المتحدثين عن الأخلاق والفن "النظيف". أصبح الكل يعلم أن الكل خاطئ. والأهم أن كل خاطئ أصبح يعلم أن الكل يعلم عن خطئه، ليتحول المجتمع بالكامل لمدينة من الموتى الأحياء. الكل يخشى النظر لغير الأرض. الانتصار الوحيد كان لأولئك الذين كانوا يفعلون ما يفعلون في العلن بلا أي اعتبار لنظرة المجتمع. انتصارهم كان ساحق لدرجة أن أحدًا لم يفكر في البحث عن شئ لهم. البحث معظمه كان عن رجال الدين والداعين للأخلاق ورجال الحكومة. كانت الأزمة أكبر من أي أزمة مضت. الجميع يخشى أن يبدأ في التحدث عن الأمر حتى لا يجد من يضع الفيديو الخاص به أمام عينيه. لا يجرؤ أحد على التحدث إلا هؤلاء الذين لم يخشوا يومًا الاعتراف بأخطائهم. بعضهم بدأ يشمت في المجتمع الذي نبذه يومًا ما. والبعض الآخر وجد في ذلك شئ إيجابي، أن يعلم الجميع أنه ليس بيننا قديسًا. وذات يوم سأل أحدهم سؤالا في غاية الأهمية على فيسبوك: "برغم كل تلك الفضائح، كيف لم نسمع عن حالة انتحار واحدة؟"

وكانت الاجابة التي تسببت في أهمية السؤال أصلًا أنه عندما يكون الانتحار بسبب فضيحة ما فذلك لأن المنتحر يخشى الناس وردود أفعالهم، ويعلم أنه بمجرد أن يفتضح أمره سيتم نبذه من مجتمع الملائكة ذلك، ولكن الآن بعدما أصبح الجميع يعلم

أن الجميع يخطئ اختفت أضرار الفضيحة من الاساس. والحق أنه بعد مرور بضع سنوات من ذلك الحدث كانت عبارة "فضيحة" قد اختفت تماما من اللغة وكأنها لم تكن.

كانت ابتهال من القلائل الذين استفادوا من الحدث. وهي المتعرضة للضرر الأكبر من رجمها بحجارة يرميها الخاطئين. فكان الأمر كأن حلم من أحلامها قد تحقق. لأول مرة تبتسم، ابتسامة مختلطة بدموع الانتصار. أكثر من ساعة في موقع العين الأعلى تشاهد روائع أهل منطقتها الملائكة الذين كان خطأها يشعرهم بأنها ستستنزل لعنةً للشارع. الآن في غرفتها تشاهد الحاج عبدالستار مع زوجة صديقه الحاج عطية صاحب الفرن يمارسان جنسًا مثيرًا للشفقة ولكنه أعظم ما رأت ابتهال في حياتها، وسعادتها بهذا الفيديو خصيصًا كان لسببين، الأول أنه للحاج عبد الستار جلادها الأول، والثاني لأنه فيديو واحد يمثل كارثة لثلاثة من جلادين المنطقة، ولكم رأتها زوجة الحاج عطية وتمتمت بأمثال عن "الجار السو"!

وعلى الرغم من أنها لم تفكر في البحث عن أي شئ يخص أسرتها إلا أنها عندما خرجت من غرفتها وجدتهم كالأشباح في ظلام الصالة؛ كل منهم يخشى النظر للآخر. لم تتحدث معهم ولم

يسألوها عن سبب خروجها في الواحدة بعد منتصف الليل. خرجت من باب الشقة بملابسها الواسعة المعتادة، وصعدت الطابق الأعلى حيث يسكن الحاج عبد الستار، كاد الباب أن ينكسر من ضربها عليه، إلى أن فتح الحاج عبدالستار بعين يملؤها النوم ليجد ابتهال أمامه واضعة أمام عينيه الموبايل ليجد نفسه في الفيديو بين أحضان زوجة صديق العمر. لم يجد الوقت الكافي لإبداء رد فعل لأنه تفاجأ بصفعة من يد ابتهال اليسرى ولكن بلا رد فعل منه أيضًا، لتتركه ابتهال وتنزل درجتين ثم تصعدهم مرة أخرى لتخبره:

- إتفو عليك راجل عرص.

ثم تنزل الدرج بينما يغلق هو الباب وكأنه يعلم أنه أخذ ما يستحق.

لم يكن ما وجده سالم في سجل زوجته هو خيانة زوجية مباشرة، ولكنه وجد بعض العلاقات الجنسية غير الكاملة قبل الزواج. حتى تلك اللحظة كان يقتنع أنه يعلم عنها كل شئ، شعر أن حياته تحطمت. كل ما كان يدور في رأسه هو أن فلانًا الآن يشاهد تلك الفيديوهات لزوجته. رؤيتها تتلوى جعله يشعر أن تلك التي بالداخل هي الشيطان بذاته، فأول ما فعل كان

التقاط أول سكين أمامه، متجهًا اليها في ظلام الشقة. هي في السرير تتظاهر بالنوم ولكنه يعلم أنها مستيقظة؛ من ينام في مثل تلك الليلة؟ كل ما كان يريده هو التخلص منها. ذلك هو الخلاص الأبدي. وفي الطريق إلى غرفته وجد الضوء الخارج من غرفة الابن، أول ما جاء في باله أنه يشاهد الأن خطيئة.

***